ريمون أجيون

«أنا أرستقراطى، ابن ارستقراطى، وكتعبير عن ضمير غاب عن طبقة بأكملها تمردت وأصبحت يساريا»
ريمون أجيون

كان بالنسبة لى شيئا يشبه الشبح. تسمع عنه، تتردد حوله حكايات غير مكتملة. يهمسون أنه المؤسس الحقيقى لمنظمة الحزب الشيوعى المصرى (الراية)، وأنه الأب الروحى لقادته د. فؤاد مرسى ود. إسماعيل صبرى عبد الله، وأنه.. وأنه.. ولكن أين هو؟ وكيف؟ وأخيرا التقيته. كانت السيارة الفارهة لرجل أعمال من أصل مصرى تمضى مسرعة إلى باريس أخرى غير تلك التى نسمع عنها أو نراها ونحن زائرون، إنه حى شديد الأرستقراطية ومبنى هو الأكثر أرستقراطية فى هذا الحى. ومدخل يخيفك من فرط فخامته، أما الشقة فهى أكثر فخامة من الاثنين، هى بالدقة ليست شقة لكنها متحف لمئات اللوحات من الفن التشكيلى كل منها يوحى لك أنه شىء ثمين جداً، وكانت كذلك، فريمون أجيون هو واحد من أشهر وأغنى تجار اللوحات التشكيلية، وهذا بيته وكنزه ومتحفه.. ومعرضه.

تأملنى طويلا قبل أن يفسح الباب كى أدخل، وقال وهو يقودنى إلى الصالون: أنت إذن من يفتش عنى وعن تاريخى؟ قلت : لست وحدك. فأجاب: أعرف. وأنا معجب بنشاطك فى كتابة تاريخ حركتنا. هزتنى كلمة «حركتنا». وتشجعت، وبدأ الحوار مباشرة، وكنا فى أبريل ١٩٧٣. لكن الكلمات تخرج منه حذرة. فضحكت. قال: لماذا تضحك. قلت: حاولت أن أفتح الحنفية لكن الماء ينزل نقطة نقطة. فغير مجرى الحديث وبدأ هو فى السؤال عن مصر وهل ننوى أن نحارب؟ ومتى نستعيد سيناء؟.. قاطعته: لقد وعدتنى بساعة أريدها كاملة فإذا أردت أن تسأل عن مصر فخذ منى وعداً بيوم كامل. وأخيرا فتح ريمون أجيون صفحة كتابه من أسطرها الأولى.

«كنت شابا من أسرة يهودية أجنبية أرستقراطية جدا، ولدت عام ١٩٢١، وكنت أتردد كثيرا جدا على أوروبا وخاصة باريس، وقرأت كثيرا، فلم يكن مطلوبا منى أن أعمل، قرأت لجان جاك روسو وفيكتور هوجو (ووجدت أن بؤساء مصر مثل بؤسائه) ولعشرات غيرهما. وفى عام ١٩٣٦ وخلال زيارة باريسية بدأت علاقات خفيفة مع اليسار الفرنسى كانوا مرعوبين من هتلر، وخاصة اليهود منهم، وأنا يهودى. وأصبحت شبه يسارى. فى ذلك الحين كنت طالبا فى المدرسة اليهودية بالإسكندرية وكان مديرها اشتراكى النزعة، ومدرسة التاريخ آنا طوبى وكانت ماركسية وتدرس لنا التاريخ عبر المادية التاريخية. المناخ العام فى المدرسة اشتراكى ومعاد للفاشية لكنها كانت مدرسة لكل اليهود.. طلاب فقراء وآخرون أغنياء جدا، وباختصار أصبحت ماركسيا. ضمتنى مدام طوبى إلى اتحاد أنصار السلام (فرع الإسكندرية)، كنت متحمسا وصغيرا لكننى وجدت أننا أجانب نخاطب أجانب بلغة أجنبية وعبر قراءة كتب أجنبية. وفى السابعة عشرة حصلت على البكالوريا وسافرت إلى باريس لأدرس الطب، حلم خيالى داعبنى قرأته فى إحدى الروايات، طبيب غنى يعيش وسط الفقراء ليعالجهم مجانا، وأصبحت هناك عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى. لكن نذر الحرب العالمية تصاعدت فعدت إلى مصر. وعدت إلى اتحاد أنصار السلام وأشهرت التمرد على أجنبية العمل وكنا أربعة متمردين أنا وفتاة يونانية لا أذكر اسمها وراؤول كورييل شقيق هنرى كورييل ومارسيل إسرائيل (سمى نفسه لاحقا تشيريزى بدلا من إسرائيل) اجتمعنا ومن فرط سذاجتنا قررنا أننا نحن الأربعة الحزب الشيوعى المصرى. وتأسس النادى الديمقراطى (هنرى كورييل) وانضممنا إليه، كذلك انضممنا إلى جماعة الفن والحرية. وأصدرنا مجلة «دون كيشوت» وكتبت أنا وراؤول افتتاحية العدد الأول، وكانت الصورة معقدة، ستالين عقد هدنة مع هتلر وجميع اليهود غاضبون ومرعوبون، حاولنا الدفاع عن ستالين فلم نستطع، وجاءت الكلمات مترددة وتوحى بالنقد، فاتهمنا الناس أننا تروتسكيون، وغضب مارسيل وتركنا وتوقفت المجلة. وانضممت أنا ورمسيس يونان إلى مجموعة «المجلة الجديدة» (سلامة موسى) وبدأت فى تمويل المجلة بسخاء، ثم اشتريتها. وكان رمسيس يونان تروتسكيا وكان يتلاعب بى، فهو يعرف أننى مع الاتحاد السوفيتى وعندما أسفر عن وجهه التروتسكى تركتهم. كانت المجلة باسمه رغم أننى دفعت كامل الثمن، لكننى توقفت عن التمويل فتوقفت المجلة، وتعرفت إلى شاب متحمس هو أسعد

حليم وأسست له دار نشر هى دار الفجر وكان شابا وديعا ومناضلا حقا.

وفى ذلك الحين وفد إلى مصر آلاف المهاجرين اليوغسلاف (٢٨,٠٠٠) وكانوا مكدسين فى بؤس شديد فى معسكرات تابعة للصليب الأحمر، وكان كثيرون منهم يساريين فاشتركت أنا وزوجتى وعدد من السيدات الإنجليزيات فى جمع تبرعات لهم ومساعدتهم، وكانت هناك أيضا كتيبة من الشيوعيين اليونانيين الذين حاربوا مع جيوش الحلفاء ضد النازى، وكانت القيادة البريطانية تحاول التخلص منهم فتدفع بهم دون احتراز إلى خطوط النار الأكثر خطورة بهدف إبادتهم، وتمرد اليونانيون عدة مرات، وكنا نساعدهم أيضا، وفى عام ١٩٤٥ بدأت الحركة الشيوعية المصرية فى الانطلاق وبدأت جذورها تتعمق وأحسست أننى بوضعى الأجنبى وبثقافتى الأجنبية عاجز عن تقديم المزيد. فتركت مصر إلى فرنسا». وسكت. انتظرت فإذا به يرسل بصره إلى لوحاته واحدة بعد أخرى وكأنه يطلب منى أن أرحل. قلت غاضبا: ما لهذا أتيت. قال ماذا تريد؟ قلت: أعرف أنك كنت مسئولا عن مجموعة طلاب مصريين ملحقين بالحزب الشيوعى الفرنسى. قال: «كنت ألتقى بعض الطلاب المصريين منهم: فؤاد مرسى - إسماعيل صبرى - مصطفى صفوان، وكونت منهم مجموعة تابعة للحزب الشيوعى الفرنسى. وهذا كل شىء»، وصمت. وصممت فأضاف: «هذه المجموعة عملت معى حتى سافر أغلبها إلى مصر».

وألححت فقال: «وعندما عادوا إلى مصر أسسوا مجموعة أسميت الحزب الشيوعى المصرى»، قلت: ثم؟ قال بملل: كنت أرسل لهم رأيى، لكنه كان مجرد رأى فأنا لم أصدر أى توجيهات، قلت: وماذا عن نشرة «الشرق الأوسط»؟ فقال: أنت تعرف الكثير. ومضى قائلا: «عندما أسس الطلاب العائدون الحزب الشيوعى المصرى وأصدروا عشرات البيانات والتقارير كانت ترسل لى وتترجم وتصدر بالفرنسية فى نشرة «الشرق الأوسط» فتصور البعض أننى مسئول فى الحزب المصرى ولم أكن كذلك. وقد صدرت هذه النشرة فى عام ١٩٤٩ واستمرت حتى ١٩٥١. كنت أمولها وأشرف على ترجمتها أنا ومجموعة من المصريين المقيمين فى فرنسا». ثم نظر فى ساعته وقال أمامك خمس دقائق. ودار الحوار بشكل خاطف.

قلت: بصراحة يقولون إنك كنت مسئول المجموعة المصرية فى الحزب الشيوعى الفرنسى.

قال: كنت معهم. نعم.

قلت: معهم أم مسئولهم؟

قال: لماذا تهتم بهذا التحديد الدقيق؟

قلت: قالوا إنك الأب الروحى لمجموعة «الراية».

قال: كانوا أصدقائى وزملائى.. ألا يكفيك هذا.

قلت: ثمة فارق بين الصديق والأب الروحى.

قال غاضبا وقد وقف لينهى المقابلة: كانوا أصدقائى، اتصلنا ببعضنا كثيرا، تناقشنا، تفاهمنا، أبديت آرائى، أبدوا آرائهم. ألا يكفيك هذا؟ قلت : أكتفى به مرغما. وفيما أغادر تخلى عن تحفظه وأرستقراطيته واحتضننى، وقال: صدقنى أنا معجب بجهودك فى تجميع تاريخ حركتنا. ضحكت: هل أسجل كلمة حركتنا كاعتراف منك. قال أنت صديق وأنا أثق أنك ستكتب الحقيقية. وأرجو ألا تتردد. واصل تجميع المعلومات قبل أن يرحل أصحابها. أنت تقوم بعمل جيد. ثم سكت وفيما يقبلنى قال: ليس مجرد جيد وإنما ممتاز.